غير أن استخدام النفط في استراتيجية المجابهة العربية الاسرائيلية (عبر حجبه عن البلدان الغربية المماثلة والمساندة لاسرائيل) ظل محدودا في ابعاده وفي آثاره حتى حرب رمضان (تشرين الاول) ١٩٧٣ — وذلك بالرغم من تعاظم موقع النفط العربي في مجمل الصورة النفطية العالمية ، وتعاظم موقع النفط بين مصادر الطاقة المختلفة ، ومن ادراك العرب لهذه التطورات ، ومن المبادرة المالية الاولى في دعم صمود اثنتين من دول المجابهة .

كانت وراء هذا الاستخدام المحدود جدا عدة اسباب ومبررات ، تتطلب شيئا من التمعن . اول هذه الاسباب ان السيطرة العربية على الموارد النفطية ، سواء بالنسبة لحجم الانتاج او اسعار الخام او التسويق ، كانت شبه معدومة كما كانت البلدان النفطية في معظمها تعاني من مركب النقص معتقدة انها لا تستطيع ان تنتج النفط وتسوقه ان هي أخذت مقدراته في يدها . الى جانب هذا السبب الذاتي كان هنالك عامل موضوعي آخر هو أن وضع السوق النفطية العالمية في الخمسينات وحتى اواخر الستينات كان يتميز بشيء من وفرة العرض بالنسبة للطلب (أي أن السوق كانت « سوق مشترين » كما يقول المصطلح الاقتصادي) . وقد ترتب على هذا الوضع ممارسة الحذر الشديد من قبل المنتجين . اما السبب الثالث فهو عدم اكتمال التكتل الفعال لدى الدول العربية المنتجة فيما بينها والضعف العام الذي كانت « منظمة الاقطار المصدرة للبترول » (اوبك) تشكو منه حتى ابتداء حقبة السبعينات — مما لم يسمح للبلدان العربية ان تتصرف ككتلة في مجابهة البلدان الغربية الاستعمارية وعلى الاخص الولايات المتحدة الاميركية . اما السبب الاخير ، ولعله الاكثر أهمية فهو عدم نضوج الروح النضالية العربية بشكل عام من ضمن ارادة مشتركة للتحرك في مجابهة الاستعمار الغربي في معقليه : فلسطين ، والنفط .

ولعل السبب الاخير الذي قدمته يؤكد على استنتاج في غاية الخطورة يثبته استقراء الاحداث : ذلك هو التلازم الواضح والقوي بين ارادة النضال العربية للتصدي لاسرائيل وللمجابهة مع البلدان الغربية في الحقل النفطي . وهكذا يشاهد ان استخدام النفط في المجابهة بشكل فعال لم يمارس بين ١٩٥٦ و١٩٧٣ الا عندما تصدت الامة العربية عسكريا لاسرائيل . ويلاحظ ايضا ان للتلازم المشار اليه وجها اخر هو أن السعي — مهما كان محدودا ومرحليا — لتحرير فلسطين كان يرافقه سعي واضح — مهما كان هو الاخر محدودا ومرحليا — لتحرير ارادة الدول النفطية ولمد سيادتها على موارد النفط وتوسيع رقعة قدرتها على اتخاذ المقررات الرئيسية بالنسبة لحجم انتاج النفط وتسعيره وتسويقه .

النظرة المستقبلية : العلاقة الجدلية الفاعلة في اتجاهي تحرير النفط وتحرير فلسطين

قد يقال ان البلدان النفطية في سعيها لاستكمال سيطرتها على النفط انتاجا وتسعيرا وتسويقا وتصنيعا انما تتحرك من منطلق المصلحة الذاتية الوطنية لا القومية ، وبالتالي ان دلالة هذا السعي بالنسبة لقضية فلسطين انما هي دلالة هامشية ، وان اية افادة تجنيها قضية فلسطين من استكمال السيطرة العربية على النفط انما هي افادة عارضة تتحقق صدفة كمحصول ثانوي لا عن سابق تصور وتصميم . وقد يكون في هذا الادعاء شيء من الصحة . غير أنني اعتقد أن مقدار صحة الادعاء لا يمكن احتسابه بشكل ثابت ومطلق . انه على العكس مقدار متغير . فلئن كان الادعاء المذكور صحيحا الى حد بعيد قبل حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، الا انه اصبح قابلا للدحض الى مدى يذكر خلال